الحس العملي

في الخلق الإنكليزي (1)

يبني الانكليزي أعماله على الاختبار، ويأبى أن يصدق ملاءمة نظام إيديولوجي ما لم يقتنع بأنه نظام عملي تستطاع ممارسته. فاذا واجه معضلة ما اعتمد على ذاكرته — والذاكرة مرجع الاختبار — أكثر من اعتماده على عقله. بينما الفرنسي يعتمد على المنطق في الحالة نفسها أكثر من الاعتماد على الذاكرة. وهذا يعلل لكم لماذا تستطيعون أن تثيروا اهتمام الانكليزي بمسائل لها أساس أدبي. ذلك بأن أدب النفس هو نتيجة الاختبار. وهو يعلل كذلك لماذا تتركه المسائل الفكرية المجردة فاتراً ولا تحركه. فالحرية والإخاء مجردين لا يعنيان شيئاً في نظره. ومما يستوقف النظر ويلفته بمعزاه أن معاملة أقليات معينة في مذاهب أثارت من سخط الانكليز أكثر مما أثاره انتقاد حرية القول والصحافة والنيابة وغيرها من المنشآت التي يعتز بها الانكليزي ويتمسك بها. فالانكليز يمتازون بأسلوب ممارستهم لنظام ما لا بمبادئه التي ترسمها، وبتوجيه منشآتهم ومعاهدهم لا بطبيعة المنشآت نفسها. أي شعب عاقل يأخذ ما يأخذه الانكليز — نظاماً تعليمياً وقانونياً موروثاً من القرون الوسطى ونظاماً سياسياً بلغ من التعقيد مبلغاً يجعل تطبيقه — على ما دلت التجارب — متعذراً إلا على الانكليز أنفسهم، ويعتبرون ما أخذوه هدية ثمينة؟ ومع ذلك أجرؤ فأقول: وأي شعب آخر استطاع أن يجني من منشآت أخرى تفوق هذه المنشآت ما جناه الانكليز منها بحسهم العملي وأسلوبهم في ممارستها

واني لأسألكم أن تعيدوا النظر معي في ثلاث نواح من الحياة الانكليزية من حيث صلتها بهذا الحس العملي

أولاً تقليد الأمانة في التجارة. ان الاستقامة التي ما فتئت مبدأ سائداً صفة التجارة منذ ثلاثة قرون ليست أول ما قدمناه إلى الحضارة الغربية. وهي راجعة على الأكثر في نظري من الفطنة العملية. فقد جاء «البيوريتان» وهم المتمسكون بمبادئ الدين علماً بأن الله مع المجتهد وانه يجزيه خيراً «أن الأمانة خير سياسة»، أي انهم علموا ان الاستقامة الاقتصادية تؤتي ثمارها في الدنيا والآخرة. والواقع إنما آتت ثمارها في الدنيا على ما نستطيع أن نحكم. ولكن الانكليزي وحده يصدق ذلك. خذ مثلاً [illegible] من زمن بعيد بأن الأساليب الملتوية لا تجدي وانك لا تستطيع ان تجني خيراً [illegible] وتعقد جنيها مستمراً إلا إذا كانت كلمتك سلكت وعهدك. وعلى هذا نشأ التقليد العملي المعروف لتقييد الاستقامة في الأعمال التجارية

---

(1) من محاضرة [illegible]

ولكن لهذه الصورة وجها الآخر، فهناك هوة روحية تعرض لنا الآخذين بتقاليد « اليورتان » المفرطة فيها ، وعلى مقدار ما تتصف بالحس العملي والكفاءة يزداد خطر تعرضنا لهذا السقوط . فاذا كان الله كافأ اليورتان في جانب النجاح الاقتصادي فالشيطان يجب أن يكون ملازماً لمن يجب وكذلك تصبح الفاقة خطيئة علاوة على أنها مصيبة . وعندما قال تلمس — وهو مثل بارز على عبقري عملي — « إن قلة الثروة جريمة لا أستطيع التغلب عليها » كان يعرب عن رأي لم يكن نادراً حينئذ في الدوائر التجارية المحترمة في عصره . ولعل هذا كان الثمن الذي إقتضاه منا إملاؤنا قواعدنا التجارية على أوربا

أما الناحية الثانية من الحياة الانكليزية التي أجد فيها للحس العملي شأناً عظيماً فهي ناحية « الطبقات » . فلسنا نجد في بلد آخر المميزات الاجتماعية التي تنطوي في هذه اللفظة وقد بلغت ما بلغته في انكلترا من التصلب والمرونة في آن واحد . فاذا كانت الطبقة العليا مفصولة فصلاً محكماً عن سائر الشعب ، فتلك طبقة مقضي عليها بالاضمحلال والفناء . أما وقد أحس الانكليز هذه الحقيقة فتراهم يضيفون دائماً الى طبقتهم الارستقراطية أعضاء جدداً يختارونهم من أصحاب الصناعات وأقطاب القوات الحربية ورجال القانون والسياسة وحتى رجال المسرح . وهذا النظام مزدوج الأخذ والعطاء . فأبناء الأعيان الذين يلون الابن الأكبر يصبحون من العامة فيشقون طريقهم في ميادين الحياة المختلفة . والمختارون من العامة يصبحون من الأعيان . وكذلك تستمد طبقة الأعيان استمداداً دائماً قوة جديدة من العناصر القوية في الأمة فتضمها اليها . تشتمل العامة على الضد من طبقة البورجوى — المتوسطة — في شعوب القارة الاوربية ، على عناصر كثيرة محشورة متصلة بالارستقراطية . وهذا يمثل لنا قول من قال في تعريف التاريخ الانكليزي — إنه الارستقراطية مفتحة الأبواب

وأخيراً هناك الناحية العملية في الرأي السياسي . فقد عرّف الانكليزي بأنه في صميمه حيوان سياسي . ولكني لست أفهم لماذا عرف هذا التعريف لأني لا أعرف شعباً أقل عناية من الانكليز بالنظريات السياسية . ولكن المنظرين جميعاً واحدة في نظرهم ما زالت لا تمس شخصيتهم وتماسك الوحيد الذي يسيطر عليهم سيرة عمدها هو الفطنة أو الحس العملي السليم ... هذا يفسر ... رغبتهم الخدمة ورغبتهم في الاتفاق الوسط

ولعلنا نستطيع أن نقسم جميع الناس الذين يعنون بالسياسة الى فريقين . ففريق يرى أعضاؤه أنهم يستطيعون أن ينشئوا نظاماً جديداً لعالم جديد بمعنى أنهم يؤمنون بالاصطناع . فهؤلاء هم الثوريون الذين يظنون أن مساوئ الحرية القائمة في الحاضر خالصة في ماضي العهد فيرغبون في إفراغ المجتمع في قالب جديد مصطنع يظنونه أمثل وأفضل من القالب الذي أفرغت فيه على مر العصور أما الفريق الآخر فيشمل الذين ينظرون الى الأشياء على أنها تنمو نمواً ذاتياً ويؤمنون

بأن المجتمع جسم عضوي، وأن فصله عن ماضيه وقطع صلته به يؤذيه ويقتله ويقضي عليه. فالمرء في نظر هؤلاء هو «الماضي» وقد أضيف اليه النمو التدريجي الذي ينموه كل قرن من الزمان. وألفاظ «الثوري» و«...» و«المفرط» و... أو «المحافظ» و«المتطرف» ليست إلا أسماء تخفي وراءها هاتين النظرتين الأصليتين الى الحياة. أما نرى أصول هاتين النظرتين في «جودوين» و«برك». فعندما نشر «جودوين» من قرن ونصف قرن «عدالته السياسية» كان موقفه من المجتمع موقفاً ارستقراطياً في صميمه. فأنكر كل ما سبق. وطلب محو كل ما دوّن على اللوح، لينشىء على هذا اللوح النظيف، شيئاً جديداً لم يجرّب من قبل أي أنه رغب في أن يقطع سلسلة الاستمرار التاريخي في الحياة القومية. كان قوي الحجة ولكنه كان مفكراً ثورياً. أما موقف «برك» فكان موقف من يدرك مغازي التاريخ. فالاجتماع في نظره وليد الزمن. وقطع الصلة بالتقاليد قطعاً باتاً في منزلة الانتحار، ويقرن بالحياة كارثة انسانية عظيمة، فاذا فعلت ذلك فأنت — في رأي برك — تعالج المجتمع كأنه مادة جامدة ميتة، لا جسماً عضوياً تنتفض الحياة فيه

وموقف الانكليز من جودوين وبرك دليل قاطع على متجه عطفهم. فبينا كان جودوين يُنسى، رفع برك الى مصاف الأعيان. وأسارع الى القول بأن هذا الاختلاف في معاملتهما ليس مقياساً لقيمة أفكارهما. فكثير من أفكار جودوين وآرائه كان مبتكراً. وكثير من آراء «برك» كان عادياً معاداً. والواقع ان الأجنبي عن اللغة الانكليزية العاجز عن تذوق ديباجة برك وبلاغته يدهش للمنزلة التي نزلناه فيها إلا أن تقدير برك ليس مسألة نستطيع أن نزعم أننا ننظر فيها نظراً مجرداً عن الهوى فهو يؤثر في الحس العملي الذي يتصف به الانكليزي. وهذا كل ما في الأمر لا أكثر ولا أقل

فالانكليزي من الناحية السياسية، منقاد كبرك للذاكرة، والاختبار لا للمنطق المجرد

وأظن أن هذا القدر من الكلام في خلق الانكليزي يكفي الليلة. وإني لأرجو أن يكون ما قلته عن التنوع في خلقه، وتمسكه بطابع أو أسلوب من نوع معين، وحسه العملي. مفيداً في تقدير الاضافات الخاصة التي أضافها الانكليز الى حضارتنا وهي موضوعات المحاضرات التالية

ولكن هناك شيء آخر أريد أن أضيفه الى ما تقدم. كان آخر ما قلته ان الانكليزي يؤمن بأن المجتمع البشري بناء عضوي، فهو يراه شيئاً حياً. ينمو وفقاً لسنن خاصة وبادراته الخاصة. ويعلمه تجاربه اليوم. لكي تكافح زمنه استعداد ... للاحتياج الى ... ونعرف بأنه لا فرائضه ينشؤه في قالب ... ويوحي بارد فسد. وإني لمقتنع بأن عناصر الخلق الانكليزي — وهي الشجاعة وما يلازمها والحس العملي القوي — فيما أرى كافية لهداية ... خاصة أن الانكليزي يجد في فترة كهذه فرصة ليجرب أتمّ اختباراته بأمثلة عن الخلق الانكليزي